

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حاولت في هذا الكتيب أن أعرض صور الترجمة الشخصية عند العرب في عصورهم المختلفة ، من العصر العباسي إلى العصر الحديث ، وهو فن مستحدث عندهم ، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرءوا آثارها ، وخاصة اليونان ، فإن بعض متفلسفهم ترجم لنفسه ، وتحدث عن كتبه . وحاكاهم متفلسفو العرب ، واتسعت المحاكاة ، فدخل فيها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة .

وكان لكل طائفة منهمجها الخاص ، فالفلاسفة والعلماء ، إنما عُنُوا بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية وما ألفوا وخلّفوا من مصنفات ، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التي وقعت عليه وأثرت في حياته . ويظهر أنهم لم يفتنوا إلى ضرورة ذلك ، ومن ثمّ كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية ، إذ تصبح في أغلب الأمر تبييناً للمؤلفات الفيلسوف أو العالم غير معنية بشيء من بيئته أو حياته .

ولم يَجْرِ المتصوفة في هذا الاتجاه ، فقد عُنُوا بالحديث عن تجاربهم الروحية وكأنهم يريدون بها جذب الناس إلى طريقهم وما فيه من مواجد وشاعر ومقامات ومشاهدات ، وقلما اعترفوا بأخطأهم أو تحدثوا عن نقائصهم . ومع أنهم يُطْرَفوننا أكثر من المتفلسفة والعلماء بوصفهم لتجار بهم الدينية ، إلا أنها تجارب محدودة بهذا المجال ، ولا تخوض بنا في الحياة البشرية العامة بكل ما فيها من قبح وحسن ، ونقص وكمال ، وضعف وقوة .

وكتبَ بعضُ الساسة ورجال الحرب تجاربهم في حياتهم السياسية أو الحربية ، وهي تجارب خارجية في أكثرها ، ولكنها تصور جوانب مهمة من أحداث حياتنا في العصور الوسطى . إذ اتفق أن كان من هؤلاء الرجال دعاة لبعض النحل الدينية السياسية وأبطال أسهموا في الحروب الصليبية غرباً وشرقاً في الأندلس والشام . فقدموا لنا مذكرات ووثائق تاريخية خطيرة ، وإن كانوا قلما قدموا حياتهم الخاصة في شكل يوميات دقيقة .

حتى إذا كان العصر الحديث رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أديباؤنا وكتابنا للغربيين من تراجم كاماة عن حياتهم ، وقد وصفوها فيها من جميع أطرافها ، بعيوبها ومحاسنها ، بل لقد تحولوا بها إلى اعترافات صريحة بدون أى تحرج أو تصنع . وبذلك غدت الترجمة الشخصية عندهم ضرباً من القصص الحى البديع .

وربما كان طه حسين خير من جارى الغربيين في هذا المضمار . فقد كتب عن طفولته وشبابه في « الأيام » بدون أى تمويه ، وأعطانا صورة تامة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقدته لبصره في سن مبكرة ، ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولى . وسكب على « أيامه » كثيراً من فنه ، فجاءت قطعة أدبية رائعة . وكتب أحمد أمين حياته في يسر وبساطة ، مصوراً بيئته وظروفه تصويراً وافياً . وقد ألمنا بذلك كله في إيجاز بقدر ما تسمح به حلقة في هذه السلسلة . وعلى الله قصد السبيل .

شوقى ضيف

القاهرة في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٥٦ م

لعل أقدم صورة لترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم ، فيعرفون بأنفسهم ، وقد يذكرون بعض أعمالهم . واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريتهم وأفعالهم . وكانت تسمى هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم . وقد سجل يوليوس قيصر في كتابه «التعليقات» حروبه في الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبي . وعرض عرضاً بارعاً الدسائس والمؤامرات التي كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء .

وأيضاً عن ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم ، نقلها عنهم العرب فيما نقلوه من تواريتهم وأخبارهم ، وفي كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه أن كسرى أبو شروان ألّف كتاباً في سيرته وسياسته . واكتفى مسكويه في التعريف به ببعض صفحات من هذا الكتاب تصور حروبه وانتصاراته على الروم والترك والديلم ، كما تصور سياسته الداخية ونشره للعدل في رعيته وتخفيفه لمغارم الضرائب عنها ، حتى تقوى على عمارة الأرض واستخراج ثمارها .

ومع مرّ التاريخ نشأ المؤرخون ، ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة ، وأدعت كتاباتها كثيراً من حياتها وأحوالها وتجاربها ، وكان من أهم ما قرأ له العرب فصولاً طويلة في ذلك جالينوس الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور . فإنه ضمن كتبه الكثيرة التي نقاها نبذاً ونوادير متفرقة عن حياته ، وخاصة في مؤلفيه : «مراتب قراءة كتبه» و «فينكس كتبه» أو فهرسها الخاص . وفيهما صور نشأته وحياته العلمية تصويراً دقيقاً . ومن قوله في المؤلف الأول : «إن أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضات التي تؤدب بها

الأحداث ، حتى انتهت من السن إلى خمس عشرة سنة ، ثم إنه أسلمنى إلى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ إلى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعتة إلى تعليمي الطب . . . وقد أتت على من السنين سبع عشرة سنة . ويعرض علينا فى فهرست كتبه مؤلفاته وتاريخ تأليفها ويشرح ما فيها من الآراء ، ويذكر بعض الحوادث التى مرت به ، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المؤلف والمؤلف السابق له ترجمة ذاتية أو شخصية لجالينوس .

ولست ترجمة جالينوس ولا ترجمة كسرى أنو شروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا فى كتاب « كليلة ودمنة » الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسيه ترجمة لبرزويه رأس أطباء فارس الذى نقل للفارس هذا الكتاب عن أصوله الهندية . وتبدأ الترجمة على هذا النحو :

« أنى كان من المقاتلة ، وكانت أمى من عظماء بيوت الزمازمة "المجوس" وكان منسئى فى نعمة كاملة ، وكنت أكترم ولد أبوى عليهما ، وكانا بى أشد احتفاظاً من دون إخوتى ، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلمانى إلى المؤدب ، فلما حذقت فى الكتابة شكرت أبوى ، ونظرت فى العلم ، فكان أول ما ابتدأت به وحارصت عليه علم الطب ، لأنى كنت عرفت فضله . وكلما سددت منه علماً ازددت فيه حرصاً وله اتباعاً . فلما همت نفسى بمداواة المرضى وعزمت على ذلك أمرتها "شاورتها" ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس فيها يرغبون ولها يسعون ، فقلت : أى هذه الخلال أبتغى فى علمى وأيها أحرى بى فأدرك حاجتى ؟ آمال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة ؟ وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واطب على طبه ، لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوته ثمينة بخززة لا تساوى شيئاً . »

ثم يمضى برزويه فيقص علينا فى حديث مسهب سيرته فى مداواة المرضى

وكيف كان يزجر نفسه عن النظر إلى مَنْ هم دونه في العلم وفوقه في الجاه والمال ، وكيف كان يُقبل على تقديم الخير للناس ابتغاء الدار الآخرة غير مؤثر للذة ولا منخدع بمنفعة ولا بصلة لقريب أو صديق . ثم يحدثنا أنه شك في دين آباءه وأجداده . فالتمس ديناً جديداً ودعاه ذلك إلى أن يبحث في الأديان ، وطال بحثه وتفكيره وتردده . وأخيراً انتهى إلى مجموعة من الفضائل توافق كل الديانات . كما انتهى إلى النسك والزهد في الدنيا ومتاعها وشهواتها وكل ما بها من زخارف الحياة . وهي ترجمة بديعة . وإن كان يُظنُّ أنها استُخدمت في الأصل الفارسي للدعوة إلى مذهب « ماني » الذي عُرِفَ عندهم والذي كان يدعو إلى رفض الشهوات وإطراح اللذات ، مما ليس هنا تفصيله . على كل حال قرأ العرب هذه الترجمة لبرزويه ، وكان لها أثرها في تصورهم للترجمة الشخصية . وإن لم يبلغ هذا الأثر مبلغ ترجمة جالينوس لنفسه كما سنرى في الفصول التالية .

وإذا كان العرب في العصر العباسي عرفوا بعض ما كان عند الأجانب من هذه الترجمة فإنهم في العصر الحديث عرفوا أيضاً كثيراً مما كتبه الغربيون في هذا الباب ، ولسنا نستطيع أن نُحصي هنا أعمال الغربيين ، فهي كثيرة ومتنوعة ، ولكل أمة تراجمها الممتازة . بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم ، كل في محيطه وبيئته ، سلسلة متلاحقة من الآثار . ومن أروع التراجم عندهم « الاعترافات » لجان چاك روسو ، وهو يقول في فاتحتها : إنه سيعرض نفسه على حقيقتها ولن يموه فيها ، ولن يخفي سيئته أو يزيّف حسنة . وإنما سيدكر الحق مجرداً . ولن ينقص منه شيئاً . ومضى فعرض حياته عرضاً دقيقاً . ولعاصره « جيته » ترجمة شخصية سماها « الشعر والحقيقة » عرضها بأسلوبه الرائع .

وكرّرت هذه الترجمة في القرن التاسع عشر ؛ ومن ترجموا لأنفسهم فيه استدال ، وتتميز ترجمته بنظرات تحليلية في الطبائع الإنسانية في نفسه وفيمن حوله ، وكان من رأيه أن الأديب ثمرة كل الظروف التي تحيط به ، وبهذا الرأي تأثر في كتابته عن نفسه ، وحاول أن يرد عواطفه وكل ما يتصل به إلى محيطه .

ولتوسّطى ترجمة معروفة سماها « طفولة وفتوة وشباب » عرض فيها حياته عرضاً دقيقاً ، والفلاسفة الغربيون الذين ترجموا لأنفسهم كثيرون وهم يكشفون لنا في تراجمهم عن حياتهم العقلية وتطورها ، بحيث لا يستغنى عنها دارس لفلسفتهم .

ولن نستطيع أن نذكر هنا كل من ترجموا لأنفسهم في الغرب ، إنما حسبنا أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبي له تراث كبير عند القوم ، وأن هذا التراث اطلع عليه أديباؤنا المحدثون . وأنهم أفادوا منه في صنعهم لتراجمهم التي نقرؤها لهم ، وخاصة حين نجدهم يعرضون لأطراف حياتهم في صراحة ، وحين يخوضون في المؤثرات التي أثرت فيهم . ومن المحقق أن فن التراجم الغربية ارتقى عند القوم ، حتى أصبحت الترجمة شيئاً طريفاً يُقرأ ، بما وضعوا فيها من اعترافاتهم ، وضمنوها من سيئاتهم وحسناتهم . وليس ذلك فحسب ، فهم يكتبون على ضوء الفكر الحديث وآرائه النفسية في الفرد والجماعة ، وبذلك يتيحون لنا دراسة ممتعة لأشخاصهم في العوالم التي ينتسبون إليها ، ونقصد عوالم الفلسفة والأدب والعلم .

وقد يتخذ بعضهم ستاراً من القصة ، ولكن مع ذلك تُعَرَّفُ الحقيقة ، فإذا القصة حين تُغَيَّرُ الأسماء فيها تصبح علماً عليه وعلى أهله وأصدقائه والأشخاص الذين عرفهم . على نحو ما هو معروف عن قصة « راعي ويكفيلد » لجولد سمث ، ولم تشتهر قصته في هذا الباب كما اشتهرت قصة « ديفد كوبّر فيلد » لديكنز فإنه قص فيها حياته الأولى ، وليس « مستر مكويتر » تلك الشخصية البديعة في القصة إلا أبوه بكل ما يميزه من سمات . ويمكن أن نقول بصفة عامة إن كثيراً من مواقف القصص ، بل إن كثيراً من أبطالها يصورون كاتبها في ظروف معينة ، فالكاتب كثيراً ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية ، ولا يضعف ذلك من عمله ، بل قد يرفع منه أحياناً ، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقي .

ولعل من الطريف أن أديبنا المعاصرين قلدوا الغربيين في العملين أو الوجهتين جميعاً ، فهم تارة يكتبون تراجم شخصية كاملة ، يرسمون فيها

حياتهم رسماً دقيقاً ، لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية : وثارة أخرى يقصّون على طريقة التوموم قصصاً يصور حياتهم ، إن لم يكن تصويراً كاملاً ، فهو تصوير لبعض تجاربها . ومن أمتع ما كُتِبَ في هذا اللون قصة «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبدالقادر المازني . حقاً أنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازني . ولكنها في جملتها تعد تصويراً لوقائعه وتجاربه الشخصية .

وكتابة القصة على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق ؛ لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه ؛ ولكنها على كل حال تعد تعبيراً عن نفسه . وإن لم يكن تعبيراً دقيقاً على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية التي تنحصر في تجارب الكاتب . ولا يُضاف إليها أي تجربة من الخارج . ولا أي حادثة . من شأنها أن تضع ستاراً أولثاماً بيننا وبين حقائقه .